Annals of letters and languages حوليات الآداب واللغات
ISSN 2335-1969 E.ISSN 506X - 2602
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/312

مجلة علمية دولية محكمة . كلية الآداب واللغات . جامعة محمد بوضياف .المسيلة الجزائر

المجلد 09 عدد : 03– 19 – أكتوبر 2021 صفحة من : 19 إلى .32

الموروث والتناص : قراءة في شعر الأمير عبد القادر

Heritage and intertextuality : Reading in Prince Abdulkader'poetry

المؤلف الأول[1]* د. قواوي الزهرة

omellaagaououi@gmail.com

/ مخبر قضايا الأدب المغاربي/كلية اللغات والآداب/ جامعة البويرة – الجزائر

معلومات المقال

تاريخ الاستلام : 15 /12/ 2020.

تاريخ القبول 2021/01/02

الكلمات المفتاحية

التناص، التراث، الشعبي، الديني.)

ملخص

يقدّم هذا المقال قراءة في شعر الأمير عبد القادر الجزائري لبيان تأثره بالتراث عامة، وهدفه هو رصد تفاعلاته مع الشعر العربي القديم والثقافة العربية الإسلامية والأقوال الشعبية المحلية، وتوضيح فضل تجربة الأمير عبد القادر الشعرية على تطوّر الشعر العربي والجزائري. وبيان فضل شعر الأمير في العودة بالشعر العربي والجزائري إلى مستوى الشعر العربي الأصيل.

Key words (05)

Al Amir, intertextuality, heritage, religious, folk, and literary

Abstract (in e)

This article provides a reading in the poetry of Emir Abdelkader Al-Jazaery to demonstrate his influence with heritage in general, and his goal is to monitor his interactions with ancient Arabic poetry, Arab-Islamic culture and local folk sayings, and to clarify the merit of Emir Abdelkader's poetic experience over the development of Arab and Algerian poetry. And the statement of the prince's poetry's merit in returning Arab and Algerian poetry to the level of original Arabic poetry

[1] المؤلف المرسل : د. قواوي الزهرة

1- . المقدمة :

يعدُّ الأمير عبد القادر رائدَ الحداثة الشّعرية في الجزائر؛ ذلك إنّه استفرد بشخصيّة غنيّة من حيث التكوين(رجلٌ عسكريّ ومؤسس دولة حديثةٍ، ذو توجُّه صوفيّ، مشبع بثقافة تراثية شعريّة)، وهي كلُّها مواصفاتٌ ساهمت في وضع اللّبنات الأولى لإحياء الشّعر الجزائري، والملاحظ أنّه أحيا التّصوف بمعناه الفلسفيّ، واستعاد فكرة الصّراع مع الآخر، وأعاد المنهج الشّعري القديم من خلال الأساليب والصيغ الفنيّة، مثل فكرة الطّبع وعدم التكلّف وتفضيل الرّونق الشّعريّ والاهتمام بالتأثير[1]، وعلى الرغم من كون نظرته إلى الشّعر تميَّزت بالغموض و عدم التّحديد، فإنّه قدْ ساهم – ولو بقسط يسير– في إحياء الشّعر العربيّ والجزائريّ، وقد يكفيه شرفُ المحاولة في ذلك.

يسعى هذا البحث إلى توضيح فكرة التناصّ التراثيّ اعتمادا على قراءة متأنّية، وفاحصة لشعر الأمير عبد القادر من خلال طرْق النقط التالية:

1- تحديد مفاهيمي لمصطلحي الموروث والتناصّ.

2- أنواع التناص في شعر الأمير

1.2- التناص الدينيّ

2.2- التناص الأدبيّ

3.2-التناص الشعبيّ.

2- **تحديد المفاهيم:** يمكن تحديدها في مصطلحي الموروث والتناصّ.

1. الموروث:

ورد مصطلح الموروث بتسميات عدّة: الموروث والتراث والموروثات، لكنّ أشهرها على الإطلاق التراث.

1.1-التراث لغة :

وردت كلمة تراث في لسان العرب بالصيغ التالية: " الوِرْثُ والوَرْثُ والإِرْثُ والوِرَاثُ والإِرَاثُ والتُّراثُ واحدٌ"[2]. لتدلّ على ما يرثُه الإنسان ... من مال وحَسَبٍ. والتُّراث اسم من الفعل وَرِثَ فُلَانًا، ومنهُ وعنهُ: صار إِليهِ مَالُه، أو مجدُهُ بعد موته[3].

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم دالة على المال، أي التَّركة المادية، قال تعالى: « وَتَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلاً لمًّا»[4] و في معنى آخر دالة على تركة النبوّة والحكمة والمعرفة، في قوله: « يَرِثُني ويرثُ من آل يعقوب واجْعَلْه ربِّ رضيًّا»[5] كما نجد أنّها جاءت في المعاجم غير

العربية لتدلُّ على ما وصلنا عن الأولين من تراث نفيس، أصيلٍ بالمقارنة مع ما هو موجود، وهو الأمر ذاته نحصل عليه في موسوعة لاروس الكبرى[6]، والمعجم الألف بائي التّحليلي للغة الفرنسية[7]، والمعجم الموسوعي: (كيـيّي quillet).[8]

وفي معاجم المصطلحات الحديثة في العربيّة نجد تعريفا يكاد يكون مفصّلا بحيث يوضح أنواع هذا التراث ومجالاته وقيمته: « ما خلفه السَّلف من آثارٍ علميّة أو فنيّة وأدبيّة، ممّا يعتبر نفيسًا بالنسبة لتقاليد العصر الحاضر وروحه، مثال ذلك: الكتب التي حقَّقها ونشرها مركز تحقيق التّراث المتصل بدار الكتب في القاهرة، وكذلك ما تحتويه المتاحفُ والمكتبات من آثارٍ وكتبٍ تعتبر جزءًا من حضارة الإنسان »[9].

تنطلق هذه المفاهيم والتعريفات من فكرة الماضي، وما قدّمه إنسانه على المستوى العمرانيّ والمعرفيّ والفنيّ، لذلك يحتاج مفهوم التراث خاصّة إلى مراجعة وتعزيز وإعادة قراءة؛ ليساهم في بناء الإنسان وثقافته وحضارته، لأنّه مرتبط بالمستقبل وهو لا ينفصل عنه مهما عدنا به إلى ماضيه ولحظته الأولى. **2.1- التراث اصطلاحًا:**

يبدو أننا حين نبحث في مصطلح التراث نجد أنفسنا أمام كمّ هائل من الفلسفات والعلوم والتوجهات والمرجعيات المتعددة المشارب، المتنوعة الوجوه، منها التراثيّ والماركسيّ والحداثيّ وغيرها، وهو الأمر الذي يزيد من صعوبة الإمساك بمفهوم واضح لا غموض فيه من لدن الباحثين؛ إذ" التراث مفهوم ملتبس؛ فهو يعني – في مختلف الأبحاث التي تناولته – كلّ ما خلّفه لنا العرب والمسلمون من جهة، ويتحدّد زمنيّا بكل ما خلفوه لنا قبل النهضة من جهة ثانية، وهذا التحديد نجده يتّسع ليشمل كلّ الموروث المكتوب والمحكيّ، وكلّ الآثار التي بقيت من عُمران وعادات وتقاليد لها صلة وثيقة بالحقب الخالية. هذا الشمول والاتّساع لا يمكن إلا أن يدفع الناس إلى الالتباس، ويخلق الإبهام" [10].

وبذلك فإن للتراث خاصيتين هامتين إحداهما مكانية جغرافية والثانية زمانية، لكنّ الأهم في كلّ ذلك هو البعد الإنسانيّ الذي يتّسم به؛ إذ إنّه في متناول كلّ إنسان وفي خدمته، لذلك ينظر إلى التراث على أنّه كمٌّ من العلامات الدالّة على مظاهر حياة الناس وتفكيرهم وثقافاتهم وحضاراتهم في شتّى المجتمعات فهو " ... كلّ ما وصل إلينا داخل الحضارة السائدة؛ فهو إذن قضيّة موروث وفي نفس الوقت قضية مُعطًى حاضر على عدة مستويات "[11] وممّا يزيد في أهمّيته هو أنّنا اليوم بإمكاننا أن نتّصل بثقافات الشعوب بسهولة؛ لما تتميز به حياة الإنسانية في هذا العصر من سرعة في وصول شتّى الأعمال الفكرية والفنية، وهذا مما أثّر في تقارب ثقافات الشعوب بعد أن تعرّفت على "تراثات" بعضها بيسر، وهذا ما عبر عنه الدارسون أحيانا بالعولمة.

وبعيدا عن هذه التوجهات والاختلافات يمكن أن نفهم التراث– بشيء من التبسيط– على أنّه «... إبداعٌ فكريٌّ متميّزٌ يشمل ... الفلسفة وعلم الكلام والتّصوف والأدب والإلهيّات والعلم والفنّ وغيرها، وهو يعكس البعد التاريخيّ أو الزّمنيّ للثّقافة؛ باعتباره تسجيلاً للحياة الثقافيّة والفكريّة والاجتماعيّة والسياسيّة خلال التّاريخ، فهو بذلك حافظة الماضي ووعيه وذاكرته، كما سَجَّلته عقول ذلك الماضي من فلاسفة ومفكرين وأدباء وعلماء وفنانين غيرهم، ومع ذلك فإن هذا التراث العميق لا يزال يعيش فينا بشكل أو بأخر، وإن لم ندرك ذلك تمام

حوليات الآداب واللغات
Annals of letters and languages
annaleslettres@gmail.com

الإدراك»[12]. على أنّ الأمر الذي يهمّ حقّا هو حضور هذا التراث في الأدب؛ والشعر تحديدا بأقسامه الدينيّة والتاريخيّة والأدبيّة والشعبيّة ... وغيرها. وهو ما سوف نتطرّق إليه من خلال نصوص الأمير عبد القادر الجزائريّ.

2-التناصّ:

اهتم الدارسون بالتناص ووضعوا له تعريفات كثيرة، فعُرّف اصطلاحا بأنّه: "الوقوف على حقيقة التفاعل الواقع في النصّ في استعادتها أو محاكاتها لنصوص – أو أجزاء من نصوص سابقة– عليها"[13]. وبذلك يكون التناصّ علاقة بين نصّ ما وعدد من النصوص الأخرى يكون الكاتب قد تأثّر بها كاملة أو بجزء منها فقط في جانب معيّن أو عِدّة جوانب. وعُرّف التناص أيضا بأنّه: "تفاعل النص في نص بعينه"[14]: أي أنّه علاقة تفاعل نشطة متواصلة بين عدة نصوص، وهو ما يقدّم لأي نصّ حضورا ومنيا ثلاثي الأبعاد؛ فهو ماضي الكتابة وحاضرها ومستقبلها في الوقت نفسه

وعرف هذا المفهوم بفضل حركة تجديد نشطة في النقد الأدبي خلال ستينيات القرن العشرين. وهو اليوم من الأدوات الجوهرية في الدراسات النقديّة التي وظّفته في توضيح سيرورة أيّ نصّ. ولم يفرض هذا المفهوم نفسه إلاّ بعد ربع قرن، وبعد عدّة مراجعات في تحديده. ومن المعروف أنّ اتضاحه وتطوره كانا بين عامي 1960 و 1969 من خلال الأعمال التطبيقيّة التي أنجزتها مجموعة "تال كال"tel quel" لكنّه اشتهر من خلال مقال جماعيّ عام 1968 شارك فيه كلّ من فوكو Foucault وكريستيفا Kristeva وبارت R.Barthes وديريدا Derrida وف.صولير Sollers ، كما أثرت الموضوع مجموعة من المقالات لكريستيفا بين عامي 1966 و 1969 . ويشير الدارسون إلى أن هذا المفهوم ورد من فكرة السوفييتي ميخائيل باختين Mikhaïl Bakhtine المؤكدة بأن كلّ نص هو مترابط مع عدّة نصوص أخرى ويحقق مجموعة من الأمور: المراجعة أو القراءة الجديدة، relecteur والتثبيت والتكثيف والتنقل والعمق.[15] وبذلك فإن العلاقة بين النص الجديد والنصوص السابقة متواصلة ومثلما تقدم النصوص السابقة للنص الجديد فإن النص الجديد كذلك يساهم في تثبيت النصوص القديمة.

3- أنواع التناص في شعر الأمير:

1.3- التناص الدينيّ:

تتعالق نصوص كثيرة من شعر الأمير مع القرآن الكريم، ويمكن رصد عدّة أنواع من التناص كما يلي:

اعتمد الشاعر تقنية الامتصاص والاجترار معًا في قوله:

يا صاح إنّك لو حضرت سمانا وقت انشقاقها حين لا تتماسكُ

وشهدت أرضا زلزلت زلزالها ألقت ما فيها والجبال دكادكُ [16]

حوليات الآداب واللغات
Annals of letters and languages
annaleslettres@gmail.com

فقد استلهم في البيت الأول عن طريق الامتصاص مضمون قول الله عز وجل:"**اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يُعرضوا ويقولوا سحر مستمر...**" (القمر 01-02)، كما عاد إلى الآية الكريمة وأعاد صياغتها بما يتلاءم وغرضه الشعريّ؛ إذ إنّه يصف جوّا مليئا بالرعب، والهول جرّاء معركة يقودها ضدّ المستدمر.

والأمير معتزّ بنسبه النبويّ الشريف، ويقينه الذي لا يخامره شكّ في صحة هذا النسب، لذلك فهو يفخر به ويأتي من معاني القرآن الكريم ما يعزّز به معانيه.

يقول الأمير مفتخرا:

بعليائنا يعلو الفَخَار وإن يكن به قد سما قوم ونالوا به نصرا
وبالله أضحى عزّنا وجمالنا بتقوى وعلم والتزود للأخرى
ومن رام إذلالنا قلت حسبُنا إلى إله الورى والجدّ أنعم به ذُخرا (17)

إنّ الشاعر قد كتب هذه المفاخر منطلقا من معانٍ قويّة واردة في القرآن الكريم وبذلك فإن شعره هنا يتناص مع المعنى وقلّما يأتي بلفظ القرآن أو تراكيبه المستعملة في المعنى المطروق؛ فهو يؤكد معنى قول الله عز وجلّ: "**يا أيّها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصرْكم ويثبّتْ أقدامكم**" (محمد 07) وقال تعلى: "ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين". (المنافقون 08)

وقال تعالى: **إذا السماء انشقّت وأذِنت لربّها وحُقّت وإذا الأرض مُدّت وألقت ما فيها وتخلّت ...**"(الانشقاق 01-04) ومنها قال الشاعر:

ذليل لأهل الفقر لا مهانةً عزيزٌ ولا تيهٌ لديه ولا كِبْرُ (18)

فقد استحضر ثنائيّة الشدة والرحمة في قول الله عز وجلّ: "**رسول الله والذين آمنوا أشداء على الكفّار رحماء بينهم...**" (الفتح 29) وبقوله تعالى:" **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم**" (التوبة 128) وهذا يؤكّد أنّ الممدوح استحقّ المدح لأنّه اتّصف بعدد من أخلاق النبيّ صلى الله عليه وسلّم.

ويقول الأمير:

ولم أرَ أعظمَ من نعمة مُنحت ولم تك في الحسابْ (19)

إنّها لحظة الدهشة التي يعيشها الإنسان حينما يرزقه الله من حيث لم يكن متوقّعا، ممّا يجعله عاجزا أمام الأسرار التي تساق بناء عليها كلّ الخيرات التي كتبها الله جلّ وجلاله لعباده في مشارق الأرض ومغاربها:

قال تعالى:" ... **ومن يتّق الله يجعلْ له مخرجا ويرزقْه من حيث لا يحتسب**". (الطلاق 2-3) غير أنّ الشاعر اكتفى بالاندهاش ولم يذكر سبب النعمة التي هي في الآية الكريمة نتيجة لتقوى الإنسان المؤمن. الملاحظ أن ديوان الأمير تكاد لا تخلو قصائده من معنى من المعاني القرآنية؛ فثقافة الأمير دينية صوفية قبل أن تكون سياسيّة أو أدبية.

ومن أمثلة هذا الحضور المكثف لمعاني القرآن الكريم قوله:

حريص على هدي الخلائق جاهد رحيم بها بَرّ خبير له القدر
كساه رسول الله ثوب خلافة له الحكم والتصريف والنهي والأمر
وقيل له: إن شئت قل قدمي علا على كلّ ذي فضل أحاط به العصر
فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وليس على ذي الفضل حصر ولا حجر[20]

فالبيت الأول يذكرنا بقول الله عز وجل لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم...(التوبة 128-129) أما البيت الأخير فمن قول الله عزّ وجلّ " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ذو الفضل العظيم"(الجمعة 04)، وفي ذلك إسقاط للمعاني ونقل لها من مجال معين وعلوم في أسباب النزول على مجال جديد خاص بموضوع الشاعر.

تقدم لنا هذه التناصات الدينية صورة أمينة مشرقة لشخصية الأمير عبد القادر وثقافته وفيها يظهر الأمير قوي الإيمان متمسكا بمبادئ الخير مطلعا اطلاعا واسعا على الثقافة الإسلامية.

2.3- التناص الأدبيّ:

يتغذّى شعر الأمير من الموروث الشعريّ العربيّ القديم، وهو منهج اختاره لنفسه بُغية إحياء القصيدة التراثيّة، على طريقة الفحول في العصور الذهبيّة، « فمعجمه الفنيّ ثريّ بروافد تتجاوز العصر الذي عاش فيه، فهو يرجع أصول بعضها إلى العصر الجاهلي مرورا بالعصور التي تلت الجاهليّة، ويتطلع بعضها إلى آفاق العصر الحديث»[21]. والملاحظ هو حضور أصداء لمقاطع الشعراء الكبار وأبياتهم كعنترة وأبي نواس، أبي فراس والمتنبّيّ والسهروردي، وغيرهم، حيث يستحضر الأمير روح الشاعر وهيئته النفسية العامة ثم يتقمّصها ويكيّفها مع عصره؛ كما نجد ذلك في هذه الأبيات التي يجاري فيها عنترة وتفرّده وقوته واسترضاؤه لمحبوبته عبلة ابنة عمه:

إذا ما لقيت الخيل إني لأول وإن جال أصحابي فإنّي لها تال
ومن عادة السادات بالجيش تحتمي وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي
سلي الليل عني كم ثقفت أديمه على ضامر الجنبين معتدل عال
وعني سلي جيش الفرنسيس تعلمي بأن مناياهم بسيفي وعالي [22]

ويمكننا بسهولة الرجوع إلى ما يشبه الحالة النفسيّة العامة، بل والأحداث المصاحبة لها من معارك في قول عنترة العبسيّ وغيره من الشعراء كما نجد ذلك في ذكر الدفاع عن المرأة وشرفها الذي يأتي في مقدّمة غايات خوض الحرب ضدّ الأعداء، وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم:

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

إذا ما حميتهن فلا حيينا لشيء بعدهن ولا بقينا[23]

فقد كانت حماية النسوة أمرا مقدما على بقية الغايات، خاصة وأنهن يحضرن المعارك وينشدن لإثارة حماس المقاتلين، ويحسوا بواجب الدفاع عنهن فيتعاظم الشعور بالمسؤولية، فيحرصون على تحقيق الغلبة.[24]

وهذا ما يجعل ذكرها حاضرا في حياته وشعره، لذلك يقول مهتديا بما قاله عنترة من قبل:

ولقد ذكرتك في السفينة والردى متوقع بتلاطم الأمواج

والجو يهطل والرياح عواصف والليل مسود الذوائب داج

وعلَت لأصحاب السفينة ضجّة وأنا وذكرك في ألذّ تناجِ[25]

وعلى عادة العرب القدامى فإنّ الدفاع عن المرأة دفاع عن الشرف كما يتجلى ذلك في كثير من الأشعار القديمة.

وها هو الأمير يعود إلى معاني الشعر القديم الذي صار من الأقوال السائرة والأمثال المضروبة فيقول:

ولولا الأماني كنت ذبت من الأسى أقول كئيب نال هذا من خال

أروح نفسي بالأماني راجيا سماحة دهر ضن يرجع كالخال[26]

وهو في ذلك متأثر بقول الشاعر العباسي مؤيد الدين أبو إسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد الإصبهانيّ المعروف بالطغرائي (455-513 هـ 1063-1120م) القائل:

أعلّل النفس بالآمال أرقُبُها ما أضيق العيش لولا فُسحة الأمل

في قصيدته الشهيرة بلامية العجم التي مطلعها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحِلية الفضل زانتني لدى العطل[27]

ويعود الأمير عبد القادر مرة أخرى إلى العصر الجاهلي ويستلهم منه معنى من معاني الرجولة والشعور بالمسؤولية فيقول:

سوانا ليس بالمقصود لمّا يُنادي المستغيث ألا تعالُوا[28]

وهو في ذلك يستحضر قول طرفة بن العبد(ت 70 ق.هـ) الشاعر الشاب ذو النفس المتوثبة المتحمسة:

إذا القوم قالوا من فتى خِلت أنّني عُنيت فلم أكسل ولم أتبلّد[29]

فإذا كان طرفة قد لخّص الموقف الصعب في كلمة (من فتى؟) التي توحي بحاجة اللحظة إلى رجل قويّ، فإنّ الأمير قد ذكر المعنى ذكرا صريحا محددا فقال ينادي المستغيث، وبذلك يكون الأمير قد حجم معنى طرفة وضيقه في موف معين هو الاستغاثة.

والفرق شاسع بين موقفي الرجلين؛ ذلك أن طرفة يخال أنه معني غير أن الأمير متأكد من أنه هو المعني بالمسؤولية ولا وجود لغيره، أما قوله:

وأشكر الله إذ لم ينصرم أجلي حتّى وصلت بأهل الدين أوصالا [30]

فهو من قول فروة بن نفاثة السلوليّ ويقال له كذلك قردة بن نُفاثة:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى كُسيت من الإسلام سربالا [31]

وهذا البيت ينسب إلى لبيد بن ربيعة العامري الطوسي ويقال إنه البيت الوحيد الذي قاله في المرحلة الإسلامية.[32]

وعاد الأمير إلى الشعر القديم لكن هذه المرة استأنس بعنترة فقال:

ولو ندري بماء المُزن يُزري لكان لنا على الظمإ احتمال

وهو في ذلك يستحضر قوله:

ولقد أبيت على الطوى وأظلّه حتّى أنال به كريم المأكل[33]

وهو بيت قويّ في التعبير عن كرامة الإنسان العربيّ الذي يتحمّل أقصى حالات المعاناة في سبيل المحافظة عليها، كما أورد الأمير معنى شهيرا من معاني عنترة وهو:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

ومن يكن عبد قوم لا يخالفُهم إذا جفوه ويسترضي إذا عتبوا[34]

فقال:

لا نحمل الضيم ممّن جاء نتركه وأرضه وجميع العزّ في السفَر

وإن أساء اعلينا الجار عشرته نبين عنه بلا ضرّ ولا ضرر [35]

وقد يعمد الأمير إلى عبارة قوية من العبارات العربية العتيقة فيستعملها في ثنايا شعره، كما نجد ذلك في قوله:

ألم تعلمي يا ربّة الخِدر أنّني أجلّي هموم القوم في يوم تجوالي[36]

ولعلّ أشهر من أورد هذه العبارة (ربّة الخِدر) هو حسان بن ثابت في قوله:

إن النضيرة ربّة الخدر أسرَت إليك ولم تكن تُسري[37]

وإذ كان هذا حال الأمير مع تقنية التناص الأدبي، باستدعاء لمفردة، أو لعبارة، أو استيحاء لمعان شعرية إغناء لتجربته الشعرية، وتكثيفا لحالة شعورية ارتضتها اللحظة الراهنة، فما هو موقف الشاعر من التراث الشعبي.

3.3- التناص الشعبي:

رغم مكانة الأمير العسكريّة والصُوفيّة، فإنّه كان قريبًا جدًا من أقربائه وأصدقائه، وهو موقف الشّاعر العربيّ من المحيطين به عبر مر العصور الأدبيّة، على حدّ تعبير شوقي ضيف، وهو يصحّح الرأي القائل: «بأنّ شعراء العربيّة كانوا بمعزِل عن شعوبهم، فهم لا يتغنّون بأشعارهم للطبقات العليا فحسب، مُعرِّضين كرامتهم لغير قليل من الهوان في سبيل ما يبتغون من

العيش والكسب والمكانة لأنفسهم»[38]، وإنّما يُفصحون عن مشاعر المحبّة والتّضامن مع الطبقات البسيطة والعامّة من الناس ككلّ، متى سنحت الفرصة ذلك.

وردت توظيفات تناصيّة قليلة مع الموروث الشعبيّ، وإن لم تصل درجة التوظيف الواعي، وإنما جاءت عارضة، ودلّت على تعلّق الشاعر بأصدقائه، والمحيطين به، لذا طغت عليها المعاني الشعبيّة، في صيغ ساخرة، وعبارات مشاكسة، وهو ما سمّيناه اجترارا لمعانٍ شعبيّة، أي تفصيح الكلام العامّيّ؛ لأن المقام والسياق يتطلّبان ذلك.

وممّا يُذكر أنّ الأمير زار محمد الشّاذلي[39] حين سمع بأنّه قد أصيب بوعكة صحيّة أقعدته الفراش بضعة أيام، فلم يجده في البيت، وكان الرجل قد خرج لتوّه إلى التنزُّه فبعث إليه الأمير بقوله:

يا مَلولًا لم يملَّ كيف كان اليوم حالُك
يا كثيرَ البعد عنّا كان كالغدرِ ارتحالك
كنت من ذا في أمان فبدا اليوم مُحالك[40]

فالعتاب جليٌّ في الأبيات، واقع من النفس موقع الأحباب، طافح بمعاني الدُّعابة والسّخرية، والواضح أن الأمير ينعت صاحبه بالملل، الذي لا ينتهي أبدا، يهمس له ويمازحه بألفاظ بسيطة وعبارات لطيفة، يتخيّر لها صورًا واضحةً، وتشبيهات مؤدّية للغرض الشعريّ، وإيقاعات سريعة وقصيرة، داخل مجزوء الرّمَل، إنّه يصنع شعرًا لرفيق دربه، علّه يُنسيه وعكته وعلّته، ونريد أن نشرح معنى قولنا واضحة وبسيطة، فلا تعني السّطحية أو اللّغة المبتذلة، وإنّما هي التي تحقق الإبلاغيّة وتلبّي حاجة القارئ، وهي ليست نتاج فقر لغويّ أو ضعف مقصود في التّعبير الشّعري، « فليست البساطة التعبيريّة سهلةً، بل هي من الصّعوبة بمكان، ولا يقدر عليها إلّا الفنّان العصريّ الحقيقيّ، وليست كلُّ بساطة محمودةً، فقد تكون سطحيّةً ضحلةً، وقد تكون عميقةً، وهي تعد نصرا فنيّا، إذا أدّت تجربة منظمة ناضجة»[41]، وهي كذلك عند شاعر حداثي، مقتدر، كالأمير عبد القادر الجزائريّ.

إنّ المعنى الشّعبيّ حاضرٌ في هذه الأبيات من غير تضمين لعنصر شعبيّ حكائيّ أو أسطوريّ أو سحريّ أو حتّى عجائبيّ عمومًا.

ولكن في قصيدة أخرى من بحر الطويل تحضر ألفاظٌ دالةٌ على السّحر والانبهار والجمال، كما عرفتها أذواق الشّعوب القديمة، وصورتها في كثير من أشعارها بيد إنّها ظلّت في مساحة ضيقة من أنفاس الشاعر ودفقاته الشعوريّة بعيدا عمّا يمكن أن توحي به من دلالات أبعد في عوالم التصوير الفني والأسطوريّ:

خليليّ وافت منكم ذاتُ خلخال تتيه على شمس الظّهيرة بالخال
تميسُ فتزري بالغصون تمايلًا تروح وتغدو في بُرود من الخال
لها منطقٌ حلو به سحر بابل رخيم الحواشي وهو أمْضى من الخال[42]

إن أوّل ما يلفت النظر في هذه المقطوعة هو انبناؤها على مفردة واحدة في نهاية كل بيت (الخال)، لقد حشد لونا من الجناس يسمّى التعطّف وهو أن تذكر اللفظ ثم تكرّره والمعنى مختلف[43]، وهذا يبرز لنا دقّة المعرفة اللغوية التي وظفها الأمير منطلقا من تعدد معاني الجذر الثلاثي العربي (خ و ل) الذي يدل على الظنّ، وكأن فيه إشارة لطيفة إلى تلك الملحة اللغوي التي في تحول الفعل من خال في الماضي إلى إخال في المضارع، وهذا يذكرنا بالحديث الشريف (ما إخالك سرقت) ومن معاني الفعل خال العلم بالشيء، وتسمّي العرب السحاب "الخال" كما يشار إلى أن الخال هو الكبر انطلاقا من قول الله عزّ وجلّ(... مختال فخور...)[44]، ولعل عدم مراعاة هذه الجوانب اللطيفة هو ما جعل "وهب أحمد رومية" لا يستملح هذا التصنيع من الشعر؛ « لأنّه يرفع درجة التنبؤ إلى درجة اليقين، وبذلك يُلغيها، ويورث النفس قدرًا من الملالة لا يدفع، ويتحول بالشعر من نشاط خلاق إلى مهارة لغوّية خاملة»[45].

ما يهمّ هنا في أبيات الأمير هذه هو وظيفة المعاني الشعبيّة في النص، وإذا تأمّلنا اللغة الشعريّة وجدناها مبنيّة على الكناية والتشبيه، فإعجاب الشاعر بالقصيدة جعله يمتدحها كونها امرأة جميلة، تضع الخلخال على ساقها، وتمشي متبخترةً، مزهوة بذاتها انسياقا وراء الرؤية البيانيّة التراثيّة التي ارتضاها الشاعر القديم في تشكيل صورة الشعر(القصيدة) / المرأة، فالعلاقة التّماثلية واضحةٌ بينهما، إنّه يجتمعان منذ زمان في معاني الغواية والتمنع والسّحر في قوله: (تميس، تمايلا، تروح، تغدو) وكذا في قوله (لها منطق حلو به سحر بابل) وهي صورة أسطورية قديمة تدلّ على ارتبط السّحر بالكلام. إنّ قوة القصيدة في ألفاظها ومعانيها تماثل حديث المرأة المنمق الجميل.

4- الخاتمة:

إذا كنّا قد قدّمنا الأمير عبد القادر على بقيّة الشعراء في مهمته الإحيائية التي أثرت حياة الشعر في ثقافتنا المعاصرة، فلأنّه يمثّل قائد الحداثة الشعريّة في بلادنا، ووقودها الذي شحن به الشعراء تجاربهم وقصائدهم في التجارب التي حلّت بعده.

ليس الهدف – من عرض هذه الشواهد– بيان حضور التناص عند الأمير كونَه ظاهرة فنيّة طغت في شعره، بل أقصى ما نطمح إليه هو محاولة تلمّس الظاهرة وظلالها في متونه الشعرية، وزوايا تناولها.

وبعد فقد كان شعر الأمير عبد القادر صورة صادقة عن ثقافته الدينية والعربية الأصيلة والتصوفيّة، لذلك كانت ألفاظ هذه المجالات مرجع شعره، كما كانت تلك التناصات أكثر اتجاها نحو النصوص العربية العتيقة التي تغنى أصحابها بالشجاعة والبطولة وحماية الشرف والأهل من أمثال عنترة وعمرو بن كلثوم، أما التناصات الشعبية فكانت قليلة؛ لأنّ الأمير قد غلبت على

ثقافته نماذج من الثقافة العالمة الأصيلة التي تمثلت كبريات الكلاسيكية الأدبية والتصوفية، التي وظفت في بيان أفكاره وعواطفه ورؤاه رغم التأكيد على نضوبها وندرتها. وتقريرنا بأنّها كانت في شكل معان شعبيّة دالة على روح شعبيّة تطفو أحيانا على يوميات الأمير، ونزوع نحو البساطة والدعابة والتهكّم والاهتمام بطبقات الناس وشؤونهم اليومية.

5- المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم

1-الكتب العربية :

1. ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع القاهرة، د/ت.
2. ابن منظور، لسان العرب، المجلد 2، دار صادر بيروت، ص 200، مادة ورث.
3. أحمد أبو زيد، هوية الثقافة العربية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2004
4. الأمير عبد القادر، الديوان (تحقيق وشرح وتعليق زكريا صيام)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988
5. الأمير عبد القادر، الديوان، (جمع وتحقيق العربي دحو)، ط3 ، ثالة الجزائر، 2007.
6. الأمير عبد القادر، الديوان، تحقيق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر دمشق، 1960،
7. جلال الدين السيوطي، شرح لامية العجم للطغرائي، دققها أحمد علي حسن، مكتبة الآداب القاهرة،
8. حسان بن ثابت، الديوان، شرحه وكتب هوامشه عبد أ مهنا، ط، 1414، 1994، دار الكتب العلمية بيروت.
9. حسين حنفي، التراث و التجديد، ط5 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2002 .
10. الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنترة، تقديم مجيد طراد، ط1، دار الكتاب العربيّ 1416هـ- 1996م.
11. ديوان طرفة بن العبد، الديوان، اعتنى به حمدو طماس، دار المعرفة بيروت، ط1، 1424هـ 2003م
12. سعيد يقطين، الكلم والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربيّ، الرباط، ط1، 1997
13. شوقي ضيف، البطولة في الشعر العربي، ط2، دار المعارف القاهرة، د/ت.
14. شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية، دار المعارف، القاهرة، 1977.
15. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ج1، مؤسسة نويهض الثقافية بيروت.
16. عباس بن يحي، مسار الشعر العربيّ الحديث والمعاصر، دار الهدى عين مليلة، ط1، 2004.
17. عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مؤسسة جائزة سعود البابطين للإبداع الشعريّ، ط1، 2000.
18. العسقلانيّ: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل الشافعي، الإصابة في تمييز الصحابة، ج5، دار الجيل بيروت ، ط1، 1412هـ
19. علي القاسمي (المنسق)، المعجم العربيّ الأساسيّ، تونس/ باريس: الألسكو / لاروس، 1989.
20. عمرو بن كلثوم، الديوان، جمعه وحققه وشرحه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط1، 1411هـ-1991
21. عنترة بن شداد، الديوان شرح الخطيب التبريزيّ، التقدم والهوامش والفوارس: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، ط1، 1416هـ-1996م
22. لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، دار صادر بيروتّ، د/ت.
23. لبيد بن ربيعة العامري، ملح الديوان، تحقيق: حسان عباس، وزارة الإعلام الكويت، 1984.
24. مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2 (مُنقَّحة ومَزيدة) 1984 .

25.مصطفى عبد اللطيف السحرتي ـ دراسات نقدية ـ الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1973
26.المعجم الوسيط، ، مجمع اللغة العربية مصر(شوقي ضيف وآخرون)، ط4، 1425هـ-2004م، مكتبة الشروق الدولية القاهرة،

2-الدوريات والمجلات:

1- شربل داغر، التناص سبيلا إلى دراسة النص الشعري ، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مجلد 16، عدد 01، القاهرة، 1997.
2- وهب أحمد روميه، الشعر والناقد، من التشكيل إلى الرؤيا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، سبتمبر 2006 .

3-المراجع الأجنبية:

2- *D. Ene. Quillet, librairie Aristide Quillet, paris 1977*
3- *Grand Larousse tom XII .*
4- *Le Robert Dictionnaire alphabétique de la langue Française, paris XI*
5- *Pierre-Marc de BIASI, « **INTERTEXTUALITÉ THÉORIE DE L'INTERTEXTUALITE** », Encyclopædia Universalis [en ligne], consulté le 6 novembre 2020. URL : https://www.universalis.fr/encyclopedie/theorie-de-l-intertextualite*

الهوامش

(1)- ينظر: عباس بن يحي، مسار الشعر العربيّ الحديث والمعاصر، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، ط1، 2004، ص 48 ـ 49

(2) ابن منظور، لسان العرب، المجلد 2، دار صادر بيروت، ص 200، مادة ورث.

(3) يُنظر: علي القاسمي (المنسق)، المعجم العربيّ الأساسيّ، تونس/ باريس: الألسكو / لاروس، 1989، مادة ورث.

(4) القرآن الكريم، الفجر، الآية: 09.

(5) القرآن الكريم، مريم، الآية: 06

(6) Grand Larousse tom XII p 239.

(7)*Le Robert Dictionnaire alphabétique de la langue Française, paris XI 1978, p35*

(8) D. Ene. Quillet, librairie Aristide Quillet, paris 1977 p 87

(9) مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2 (مُنقَّحة ومَزيدة) 1984، ص 93.

(10) سعيد يقطين، الكلم والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربيّ، الرباط، ط1، 1997، ص47.

(11) -حسين حنفي، التراث و التجديد، ط5 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2002 ، ص 13.

(12)أحمد أبو زيد، هوية الثقافة العربية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2004، ص5- 6.

13 – شربل داغر، التناص سبيلا إلى دراسة النص الشعري ، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مجلد 16، عدد 01، القاهرة، 1997، ص: 127.

14 – شربل داغر، التناص سبيلا إلى دراسة النص الشعري، ص 128.

(15) Pierre-Marc de BIASI, « INTERTEXTUALITÉ THÉORIE DE L'INTERTEXTUALITE », Encyclopædia Universalis [en ligne], consulté le 6 novembre 2020. URL : https://www.universalis.fr/encyclopedie/theorie-de-l-intertextualite

(16) ديوان الأمير عبد القادر، تحقيق العربي دحو، ط3 ، ثالة الجزائر، 2007، ص129

(17) ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، تحقيق دحو، ص 45

(18) ديوان الأمير عبد القادر، تحقيق حقي، ص108

(19) ديوان الأمير، تحقيق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر دمشق، 1960، (مصدر الكتاب جامعة برنستون الولايات المتحدة الأميريكية). ذكر المحقق في الهامش أن في النص إقواء ظنا منه أن القافية مطلقة، لذا كان يجب أن تشكل الكلمة الأخيرة على الأقل (نعم الثوابْ) والأمر نفسه في العنوان نعم الأكرمين فللوهلة الأولى نقرأ نِعْمَ وكان من اللازم ضبطها بالشكل هكذا(نعَم) جمع نعمة.

(20) ديوان الأمير عبد القادر، تحقيق حقي، ص109

(21) – ديوان الأمير عبد القادر، (تحقيق وشرح وتعليق زكريا صيام)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1988، ، ص 72

(22) ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، تحقيق دحو، ص49

(23) ديوان عمرو بن كلثوم، جمعه وحققه وشرحه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط1، 1411هـ-1991م، ص86 – شوقي ضيف، البطولة في الشعر العربي، ط2، دار المعارف القاهرة، ص23

(24) شوقي ضيف، البطولة في الشعر العربي، ط2، دار المعارف القاهرة **ص**3.

(25) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع القاهرة ، ص ص 55-56

(26) ديوان الأمير، تحي العربي دحو، ص 63

(27) جلال الدين السيوطي، شرح لامية العجم للطغرائي، دققها أحمد علي حسن، مكتبة الآداب القاهرة، ص5، ص13

(28) ديوان الأمير، تحقيق العربي دحو، ص46

(29) ديوان طرفة بن العبد، اعتنى به حمدو طماس، دار المعرفة بيروت، ط1، 1424هـ 2003م، ص31

(30) ديوان الأمير، تحقيق العربي دحو، ثالة، الجزائر، 2000 ، ص90

([31]) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر بيروتّ، د/ ت، ص236

([32]) لبيد بن ربيعة العامري، ملح الديوان، تحقيق: حسان عباس، وزارة الإعلام الكويت، 1984، ص 307-308

([33])الخطيب التبريزي، شرح ديوان عنترة، تقديم مجيد طراد، ط1، دار الكتاب العربيّ 1416هـ- 1996م، ص27

([34]) ديوان عنترة، شرح الخطيب التبريزيّ، التقدم والهوامش والفوارس: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، ط1، 1416هـ-1996م، ص5

([35]) ديوان الأمير عبد القادر ، ص51، وقد ورد البيت هكذا: لا نحمل الضم ... ومن المؤسف أن هذه النسخة مليئة بالأخطاء في كلمات النصوص الشعرية رغم الطاقم الكبير الذي تعاون على إنجاز العمل.

([36]) ديوان الأمير عبد القادر ، تحقيق دحو، ص 49

([37]) ديوان حسان بن ثابت، شرحه وكتب هوامشه عبد أ مهنا، ط، 1414، 1994، دار الكتب العلمية بيروت، ص104

([38]) شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية، دار المعارف، القاهرة، 1977 ص 6.

([39]) ينظر عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ج1، مؤسسة نويهض الثقافية بيروت، ص185، وهو يذكر أن الرجل تولى إدارة سيدي الكتاني عام 1850، (ليس"الكتاني"كما ذكر عادل نويهض) إلى حين وفاته، ودرّس بها، قام بثلاث رحلات إلى أوربا، كما انتدب لمؤانسة الأمير عبد القادر في معتقله بفرنسا، ومات بطولقة. وينظر: معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، 2020 ، حيث يُشار إلى أنه عاش بين (1222-1292 هـ 1807-1877م) كما ذكر اسمه الكامل وهو: محمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد الصولي. اشتغل في القضاء والتدريس، وله شعر ومجموعة من الرسائل.(الصفحة الرئيسية مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين الثقافية) almoajam.org /lists/inn le 06 11 2020 ينظر كذلك: العسقلانيّ: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل الشافعي، الإصابة في تمييز الصحابة، ج5، دار الجيل بيروت ، ط1، 1412هـ، ص429

([40]) – ديوان الشاعر الأمير عبد القادر، (جمع وتحقيق العربي دحو) ، ص 73.

([41]) – مصطفى عبد اللطيف السحرتي ـ دراسات نقدية ـ الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1973، ص 113.

([42]) – ديوان الأمير عبد القادر، (تحقيق وشرح وتعليق زكريا صيام)، ص 262 ـ 263. .

([43]) – ينظر: عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مؤسسة جائزة سعود البابطين للإبداع الشعريّ، ط1، 2000 ،ص297.

([44]) ينظر: المعجم الوسيط، ، مجمع اللغة العربية مصر(شوقي ضيف وآخرون)، ط4، 1425هـ-2004م، مكتبة الشروق الدولية القاهرة، مادة خيل، ص 266

([45])– وهب أحمد روميه، الشعر والناقد، من التشكيل إلى الرؤيا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، سبتمبر 2006، ص 303.